

285214 - تفسير قوله تعالى: (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) .

السؤال

سؤالي يتعلّق ببعض آيات القرآن الكريم، على سبيل المثال قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالِكُمْ^ط فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) الأعراف/194 ، عندما قرأت تفسير ابن كثير لهذه الآية، إنَّها تتكلم عن عبادة (الأصنام)، وآيات مماثلة أخرى ، فهذه الآيات قد تمّ تفسير هذه الآيات بعبادة الأصنام. لكن، الأصنام ليسوا عباداً لله ، هذه الأشياء قد تمّ إنشاؤها من قِبَلِ الإنسان ، في المعنى الظاهر، إنَّها تعبّر بوضوح (عبادة)؟ في آياتٍ أخرى قال الله: (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ...) يونس/28 ، فهل الأصنام عبادٌ لله ؟ وهل سيبعثون في اليوم الآخر ويحاسبون؟ في رأيي المتواضع، هذه الآيات تتكلم بوضوحٍ عن الذين جعلوا شركاء لله ، عن طريق عبادة القبور، الأولياء، الأموات والأصنام، الاستغاثة بالنبي، مثل الصوفيين ، فهل بالإمكان التوضيح؟

الإجابة المفصلة

المقصود بالعبودية هنا، أي: الملك، فالأصنام مملوكة لله تعالى، لأن الخلق كلهم ملك لله عز وجل، وهو المتصرف فيهم،

يقول الطبري: " يقول جل ثناؤه لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان ، موبخهم على عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام: إن الذين تدعون أيها المشركون آلهة من دون الله ، وتعبدونها ، شركا منكم وكفرا بالله، ﴿عباد أمثالكم﴾. [الأعراف: 194] يقول:

هم أملاك لربكم، كما أنتم له ممالك ، فإن كنتم صادقين أنها تضر وتنفع وأنها تستوجب منكم العبادة لنفعا إياكم ، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتموهم ، فإن لم يستجيبوا لكم لأنها لا تسمع دعاءكم، فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضر؛ لأن الضر والنفع إنما يكونان ممن إذا سئل سمع مسألة سائل وأعطى وأفضل، ومن إذا شكى إليه من شيء سمع فضر من استحق العقوبة ونفع من لا يستوجب الضر " تفسير الطبري " (10/635)، و"التفسير البسيط" (3/315).

وقال أبو حيان في ذكر أوجه أخرى: " وسمى الأصنام عبادًا وإن كانت جمادات:

1- لأنهم كانوا يعتقدون فيها أنها تضر وتنفع، فافتضى ذلك أن تكون عاقلة وأمثالكم.

2- قال الحسن: في كونها مملوكة لله .

3- وقال التبريزي: في كونها مخلوقة .

4- وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الْمُرَادُ طَائِفَةٌ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ حُرَاةٍ كَانَتْ تَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ فَأَعْلَمَهُمْ تَعَالَى أَنَّهُمْ عِبَادٌ أَمْثَالُهُمْ لَا آلِهَةَ " البحر المحيط " (249 /5).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالِكُمْ﴾. " انتهى من "مجموع الفتاوى" (1/44) .

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله :

" إنما أطلق على الأصنام اسم العباد وعبر عنها بضمائر العقلاء؛ لأن الكفار يصفونها بصفات من هو خير من مطلق العقلاء، أنها معبودات، وأنها تشفع وتقرّب إلى الله رُؤى، فهذا الاعتبار أجرى عليها ضمائر العقلاء، وعبر عنها بالعباد. ووجه مماثلتهم هنا: أن الكفار العابدين، والأصنام المعبودات كلهم مخلوقات لله لا تقدر أن تجلب لنفسها نفعاً ولا أن تدفع عنها ضرراً. فهم من قبيل تَسْخِيرِ الله لهم، وخلقهم للجميع ، وقدرته على الجميع ، بهذا الاعتبار هم سواء ؛ ولذا قال: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالِكُمْ﴾. بهذا الاعتبار، وفي الآية التي بعدها سيبيّن انحطاط درجة المعبودين عن العابدين، كما سيأتي إيضاحه قريباً إن شاء الله. " انتهى من "العذب النمير" (4/425) .
وينظر أيضا : "تفسير ابن كثير" (3/529).

وقال العلامة ابن عاشور ، رحمه الله ، في تقرير وجه الإنكار عليهم ، وتوجيه إطلاق "عباد" ، على "أصنامهم" :
" .. المراد ب : (الذين تدعون من دون الله) : الأصنام .

فتعريفها بالموصول : لتنبية المخاطبين على خطأ رأيهم ، في دعائهم إياها من دون الله، في حين هي ليست أهلا لذلك !! ...

و (العبد) أصله المملوك، ضد الحر، كما في قوله تعالى: (الحر بالحر والعبد بالعبد) [البقرة: 178] .

وقد أطلق في اللسان على المخلوق ، كما في قوله تعالى: (إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً) [مريم: 93] ...

والمشهور أنه لا يطلق إلا على المخلوقات من الآدميين ؛ فيكون إطلاق العباد على الأصنام ، كإطلاق ضمير جمع العقلاء عليها ؛ بناء على الشائع في استعمال العرب يومئذ من الإطلاق .

وجعله صاحب «الكشاف» : إطلاق تهكم واستهزاء بالمشركين ؛ يعني : أن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء ؛ فلو بلغوا تلك الحالة ، لما كانوا إلا مخلوقين مثلكم !!

قال : ولذلك أبطل أن يكونوا عبادا بقوله : (ألهم أرجل) [الأعراف: 195] إلى آخره.

والأحسن عندي أن يكون إطلاق العباد عليهم : مجازا ؛ بعلاقة : الإطلاق عن التقييد . روعي في حُسنه المشاكلة التقديرية ؛ لأنه لما ماثلهم بالمخاطبين ، في المخلوقية ، وكان المخاطبون عبادا لله ؛ أطلق العباد على مماثلهم ، مشاكلة .

و فرع على المماثلة : أمر التعجيز ، بقوله : (فادعوهم) ؛ فإنه مستعمل في التعجيز ، باعتبار ما تفرع عليه من قوله : (فليستجيبوا لكم) ، المضمّن : إجابة الأصنام إياهم .

لأن نفس الدعاء : ممكن ؛ ولكن استجابته لهم : ليست ممكنة .

فإذا دعوهم ، فلم يستجيبوا لهم : تبين عجز الآلهة عن الاستجابة لهم، وعجز المشركين عن تحصيلها ، مع حرصهم على تحصيلها لإنهاض حجتهم .

فآل ظهور عجز الأصنام عن الاستجابة لعبادها ، إلى إثبات عجز المشركين عن نهوض حجتهم ؛ لتلازم العجزين، قال تعالى: (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم) . [فاطر: 14] ... " انتهى ، مختصرا من "التحرير والتنوير" (221-9/220) .

والله أعلم .